

جدلية الفكر والواقع

1 — ليس من الصعب تحديد الفكر بأنه كل ما يجول بعقل الانسان ، أو يتراءى له ، أو ينبثق منه . ومفردات الفكر هى الأفكار ، التى لكل منها خصوصيتها ، ومع ذلك فإنها قد تترايط مع بعضها بالتوافق ، أو المتقارب ، أو حتى بالمتضاد . كما أنها قد تتسلسل فى دوائر مغلقة ، أو مفتوحة .. وهذه الأفكار تنشأ فى العقل من ملاحظة الواقع ، والتغيرات المستمرة التى تحدث فيه ، وهى تنمو وتتطور مع نمو عقل الانسان منذ الطفولة ، وتظل تتكاثر وتتراكم من خلال تعامله مع البيئة المحيطة به ، والثقافة التى تسود المجتمع الذى يعيش فيه ، وكذلك الخبرات والتجارب التى يمكنه أن يحصل عليها من الآخرين .

2 — أما الواقع فهو ذلك العالم المحسوس ، الذى يمتلئ من حولنا بالأشياء المادية ، كما يتضمن الوقائع والأحداث المتغيرة والمطارئة التى تقع فيه ، ويحددها إطارا الزمان والمكان . ومن الملاحظ أن هذا الواقع ، على الرغم من أنه محكوم بقوانين مطردة ، إلا أنه مازال يحتوى على مجالات يستعصى على عقل الانسان إدراكها وتفسيرها . ومن بين هذه المجالات : التركيب الجسدى والعقلى والنفسى للانسان ذاته ، بالإضافة إلى مجاهل الأرض وأسرار الفضاء .

3— إن الجدلية القائمة منذ آلاف السنين بين الفكر والواقع هى التى أتاحت للإنسان أن يقف على كثير من القوانين التى تتحكم فى ظواهر العالم ، وبمجرد وقوفه عليه استطاع أن يستفيد من نتائجها ، ويتجنب أضرارها قدر الإمكان . لكن كل القوانين لم تنكشف للعقل الإنسانى بعد ، ويبدو أنه لن تكون هناك نهاية لفهم أسرار العالم إلا بانتهاء العالم نفسه . وهذا ما أصبح يذهب إليه علماء العصر الحاضر ، بعد أن كان أسلافهم من علماء القرن التاسع عشر يعظمون من قدرة العقل الإنسانى على امتلاك حقائق العالم .

4— ومن نعمة الله على الإنسان أنه تعالى - وهو خالق الكون - قد سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض . لكنه دعاه إلى أن يسعى بجهده الخاص للحصول على مفاتيح هذا التسخير . وليس هناك سوى العقل الذى يمكنه أن يفعل ذلك . فهو الذى يلاحظ ويحلل ويقارن ويستنتج لكى يخلص إلى ما ينبغى فعله ، أو تركه ، أو تأجيله .

5— وهنا قد يطرح سؤال : لماذا لم يتوصل العقل إلى أسرار العالم منذ اللحظة التى وجد فيها الإنسان على الأرض ، وتأخر فى ذلك حتى وقتنا الحاضر ؟ والجابة بسيطة : وهى أن البشرية قد مرت فى طريق تطورها بمراحل طويلة ومتدرجة ، وهى تشبه - مع الفارق النسبى - ما يمر به عقل الإنسان الفرد منذ فترة الطفولة حتى الشيخوخة . وفى كل مرحلة يواجه العقل مشكلات وعقبات تتدرج هى الأخرى من البساطة إلى التعقيد . وكلما نجح فى حل مشكلة أو تجاوز عقبة ازداد لديه رصيد الخبرة فى حل مشكلات أخرى ، وتجاوز عقبات أصعب . وهذا ما يوضحه تمام الموضوع تاريخ اكتشاف المنهج العلمى التجريبي ، الذى لم يتوصل إليه الإنسان إلا منذ ثلاثمائة عام على أكثر تقدير .

6 — والمنهج العلمي في تعريفه البسيط هو مجموع الخطوات التي إذا اتبعها العالم أوصلته إلى حل مشكلة قائمة أو اكتشاف قانون جديد. وقد ظل الانسان في كل أنحاء العالم يبحث عن هذا المنهج على مدى آلاف السنين. وفي القرن الرابع قبل الميلاد، حاول أرسطو أن يضع قوانين حاكمة للفكر الصحيح، وللغير الفاسد، فصاغ لأول مرة ما سمي بعلم المنطق أو فن المنطق، وجعله مقدمة ضرورية لكل العلوم. وقد ظل هذا المنطق ما يقرب من ألفى عام مسيطرًا على العقول حتى تبين بمرور الوقت أنه منهج لفظي يهتم فقط بصورة الفكر ولا يتعامل مع مادته، التي هي الطبيعة، كما أنه لا ينتج أفكارًا جديدة، ولما يوصل الانسان إلى اكتشافات هامة. والواقع أن بعض علماء المسلمين انتقدوا هذا المنطق، لكن الحملة الأقوى جاءت من الفيلسوف الفرنسي ديكارت (ت 1650) والعالم الانجليزي فرانسيس بيكون (ت 1626) اللذين أجهزا على هذا المنطق المشكلى أو الصوري، واستبدلوا به المنهج التجريبي الحديث الذي جعل الفكر يتعامل مباشرة مع الواقع من خلال ثلاث مراحل (الملاحظة - الفرض - التجربة التي إذا صحت أصبحت نتيجتها قانونًا علميًا، يمكن تطبيقه، والاستفادة منه في كل زمان ومكان).

7 — وقد أصبحنا نعرف أنه كما توجد في الطبيعة أمور مازالت خارجة عن سيطرة الانسان، مثل الزلازل، والبراكين، والفيضانات، والاعاصير، فإن الفكر أيضا توجد به معوقات تحول دون تقدمه المطرد للأمام. ومن ذلك: الميل إلى تصديق الخرافات، واتباع الأهواء الخاصة، وتغليب المصالح الشخصية، وخداع الآخرين تماما مثل الماخذع بهم، والتلاعب باللغة بدلا من استخدامها الصحيح، فإذا أضفنا إلى ذلك شيوع الجهل، والتكاسل العقلي، واللامبالاة في حل المشكلات المحيطة بالانسان، وتقديس معتقدات الأجيال السابقة دون فحص أو تمحيص، أدركنا أن الفكر الانساني لا يوجد أمامه طريق ممهد، بل عليه أن يجتاز في كل لحظة عقبة، وأن يتوقف أمام كل مفترق طرق ليحدد اتجاهه الصحيح.

8 — ومع التقدم العلمي الهائل الذي كان له تأثيره الواضح على حياة الناس في مختلف أنحاء العالم، لم تتوقف تلك الحجب والمجدران التي أحاطت بالعقل الانساني في الماضي، والتي حاول فرانسيس بيكون أن يلخصها في أربع دوائر للأوهام هي: أوهام القبيلة، وأوهام الكهف، وأوهام السوق، وأوهام المسرح. ونضيف من جانبنا إلى أن هذه الدوائر لم تنحسر في العصر الحديث بل إنها اتسعت وتعقدت إلى حد لم يكن ليتخيله فرانسيس بيكون، ومن ذلك: أوهام الاعلام، الذي أصبح مثل الهواء الذي يتنفسه الناس في كل لحظة وهو الذي يتحكم في العقول ويشكل الرأي العام ويوجهه إلى حيث يشاء! كذلك يمكننا أن نعد من الأوهام الجديدة: أوهام التكنولوجيا والالكترونيات، ومن خلفهما أوهام التقدم العلمي الذي انحرف مساره عن إنتاج ما ينفع الناس إلى صنع الأسلحة التي تكاد تقضى على مظاهر الحياة بكل أنواعها من فوق الأرض!

9— وإذن هل يمكن القول بأن الفكر فى علاقته الجدلية مع الواقع قد وصل إلى نهاية المشوط ، أو إلى طريق مسدود ؟ كلا ، لأن مبدأ التوازن الأبدى بين قوى الخير والشر فى الانسان ما زال قائما ، وهو كما يدفع الأشرار إلى المهدم والتدمير ، فإنه يزود الأخيار بالمقاومة التى تحول دون ذلك . وعلينا أن نستحضر هنا ما فعلته الجماعة الدولية عقب الحرب العالمية الأولى (1914 - 1919) حين أنشأت " عصبة الأمم " ، ثم بعد الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945) والمتى حصدت أرواح الملايين ، وخربت حضارة العديد من المدن ، أنشأت " هيئة الأمم المتحدة " للحفاظ على السلم العالمى ، وإيقاف عدوانية الحروب المدمرة .

10 — ومن الممكن أن يقال : إن إنشاء هاتين المنظمتين الدوليتين لم يستطع أن يمنع عدواننا هنا ، أو حربا هناك ، لكن لابد أن تتسع نظرتنا إلى ما يحدث أيضا فى الطبيعة من فوران بركان هنا ، أو وقوع زلزال هناك . وذلك كله بالمقارنة مع ما يقيمه البشر من مدن جديدة ، ووسائل مواصلات حديثة . وهكذا فإن الأمر يتعلق بوجود نسبة من الشر القليل فى مقابل نسبة أكبر من الخير الكثير . وهذا ما يدخل مباشرة فى إطار دورة القضاء والقدر ، التى ينبغى على الانسان العاقل أن يؤمن بها ، باعتبارها جزءا من الخطة الملهية التى يدار بها الكون كله .

الفكر فى مواجهة واقع المجتمع

11 — كان من أهم ما أدركه الانسان ، منذ آلاف السنين ، أن انفراده وحده بمواجهة عقبات الطبيعة أمر غير ممكن ، لذلك فقد لجأ إلى التعاون مع أشباهه من البشر لكي يتقاسموا العمل فيما بينهم ، وانتهى بهم الأمر إلى إقامة المجتمعات المتعاونة في القرى أولاً ، ثم في المدن بعد ذلك ، وأن يوزعوا فيها المهام على بعضهم : فهناك من يحكم ، وهناك من يحرس ، وهناك من يزرع أو يصنع أو يتاجر ، وهناك من يخدم كل هؤلاء ، وإن كان كل واحد منهم في حقيقة الأمر خادماً لغيره ، والمجموع يهدف إلى إقامة مجتمع مستقر وآمن ، كما يتطلع إلى مستوى مزدهر من الحياة المرغدة .

12 — وإذا كان صحيحاً أن الحاجة أم الاختراع ، فقد تكاثرت وتنوعت الوظائف في المجتمع نتيجة تكاثر وتنوع حاجات الأفراد فيه . فعندما زاد المرض الأطباء ، وحين كثر تنازع الأفراد فيما بينهم انتشر المحامون ، ورسخت قاعدة القضاء ، وعندما برزت الجريمة أنشئت السجون ، وكلما اتسع انفضال المشتري عن البائع ظهرت طائفة السماسرة لكي تقوم بدور الوسيط بينهما . وهكذا كلما تطلب المجتمع إشباع إحدى حاجاته ظهرت على الفور الوظائف التي تقوم بذلك ، حتى أن الأسرة التي لا تريد أن تطهو طعامها في المنزل أصبح من السهل عليها طلبه من المطاعم المخصصة لذلك ، والمرأة التي لا ترغب في تزيين نفسها بيدها صار أمامها أن تحقق ذلك من خلال محل تجميل .

13 — والواقع أن هذا كله ليس شراً ، مادام يحقق للمجتمع متطلباته ، ويهدف إلى إراحة الناس فيه . لكن المشكلة تبرز حين يسرف المجتمع في تلبية احتياجاته من الدرجة الثالثة أو الرابعة ، وهي التي قد تدخل في باب الكماليات . إن المجتمع العاقل هو الذي يبدأ أولاً بتلبية احتياجاته الضرورية من مسكن وغذاء ومياه صالحة للشرب وصحى إلى جانب توفير الكهرباء ، والغاز ، والمواصلات ، والاتصالات ، والتعليم ، والصحة ، ثم يلتفت بعد ذلك إلى توفير وسائل الترفيه لأبنائه ، أما عكس الأمر فهو نوع من السفه ، وقريب منه الإصرار الأحمق على توفير الكماليات والضروريات في وقت واحد .

14 — إن المجتمعات التي نجحت في تحقيق الاستقرار والرفاه الاجتماعي بها لم تصل إلى ذلك بدون الفكر الصحيح ، الذي يرتب الأولويات ، وينتقل من المرحلة الأدنى إلى ما يليها بحكمة ورشد . ولعلنا جميعا نذكر أن ساعات الراحة من العمل كانت في البداية قليلة جدا ، ثم أصبحت يوما واحدا في الأسبوع ، وانتهت أخيرا إلى يومين ، بل أن هناك من يطالب الآن بجعلها ثلاثة أيام حتى يتاح للفرد العامل في المجتمع أن يتمتع بأطول فترة من الراحة ، والشعور بالسعادة مع أسرته . هذا في المجتمعات المتقدمة . أما المجتمعات المتخلفة فقد سارعت إلى محاكاتها في جعل الراحة الأسبوعية يومين كاملين ، مع أنها في أمس الحاجة إلى مزيد من العمل طوال أيام الأسبوع حتى تستطيع أن تصل إلى ما وصلت إليه المجتمعات المتقدمة .

15 — وإذا كنا قد تعودنا أن ننظر إلى المجتمع الواحد من زوايا متعددة فنفضل فيه بين الجوانب : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فإن هذا من أجل الدراسة فقط أما في الواقع فإن هذه الجوانب تتداخل مع بعضها ، بل وتتمزج أحيانا بحيث يصعب الفصل بينها . وهذا ما يوقع بعض الباحثين في التوصل لنتائج جزئية أو خاطئة . فإذا استعرضنا الجانب السياسي ، الذي يطلق عليه : علم الحكم أو فن الحكم ، وجدناه مازال حتى يومنا هذا منقسما إلى مذهبين كبيرين : أحدهما يذهب إلى السلطان المطلق للدولة ، والآخر يؤكد على حرية الفرد . وبينهما بالطبع مستويات مختلفة من محاولات التقريب أو التوفيق التي تسعى إلى عدم غلبة أحدهما على الآخر ، أو استثنائه وحده بالحكم .

16 — ونفس الأمر يكاد ينطبق على الجانب الاقتصادي الذي يتنازعه أيضا مذهبان كبيران : المذهب الاستراكي الذي يقرر ضرورة ملكية الدولة لوسائل الإنتاج ، والالتزام بتشغيل جميع أفراد المجتمع لديها كموظفين وعمال . والمذهب الرأسمالي الذي يقرر مبدأ حرية الملكية الفردية ، وعدم تدخل الدولة في تحديد الأسعار أو حركة السوق ، مع قصر دورها فقط على تحصيل الضرائب وإنفاقها على الخدمات الضرورية للمواطنين (الجيش والشرطة والمواصلات والتعليم والصحة) .

17 — ومن الواضح أن هذه المذاهب السياسية والاقتصادية الأربعة الكبرى لم تنشأ عبثاً ، ولما بالصدفة ، وإنما جرى بحثها وفحصها بصورة عقلية خالصة قبل تطبيقها فى واقع المجتمعات التى أخذت بها . إن وراء كل منها فلسفة متكاملة العناصر والأبعاد ، كما أن لها مؤيدين ومعارضين ، والذين أخذوا بواحد منها لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن شعروا بأهميتها فى تحقيق التقدم المنشود لهم . وهنا علينا أن نلاحظ أن صحة أو خطأ هذه المذاهب لم يظهرها فقط من المناقشات التى تمت حولها ، وإنما من واقع تطبيقها فى الحياة العملية للمجتمعات . ولعل هذا يؤكد صواب بعض عناصر الفكر البرجماتى التى تقرر أن صواب أى فكرة مرهون بتطبيقها فى الواقع ، فإذا نجح التطبيق كانت صائبة ، وإذا فشل لم تكن كذلك .

18 — إن الفكر الصحيح حين يطبق على الواقع بصورة دقيقة ومنضبطة تخرج منه أروع النتائج . وقد سقطت للأبد تلك النظريات الأوربية العنصرية التى حاولت تقسيم المجتمعات والشعوب إلى فصائل مختلفة ، ومتباينة المستويات الفكرية والعقلية ، وذهبت فى عمرة الإعجاب بالمتقدم الأوربى الناشئ حينئذ إلى أفضلية بعض الأجناس على بعضها . وفى هذا الجو قال شاعرهم :

- المشرق شرق والمغرب غرب

- ولن يلتقى الإثنين أبداً !

لكن واقع الشعوب الشرقية المناهضة أثبت عكس هذه المقولات ، وأصبحنا نجد من دول الشرق ما يكاد يفوق الدول الغربية فى الذكاء ، وحسن الإدارة ، وكثرة الماخترعات ، بل إن بعض دول الشرق الذى كان يتهم أبناؤه بأنهم ذو عقلية سامية مضككة ، قد أصبحت الآن على أهية المتقدم لاحتلال مركز الصدارة بين دول العالم كله .

19 — وهكذا صار من المسلمات أن العقل الانسانى متشابه القدره بين كل الشعوب ، وأن الفروق التى تفصل مجتمعا عن آخر لا ترجع إلى طبيعة العقل فى حد ذاته ، وإنما إلى ظروف البيئه التى ينشأ فيها وينمو ، والأجواء التى تتيح له فرصة الملاحظة والإبداع . إن كلا من التعليم والثقافة ، ومن حولهما الاعلام المعاصر هو الذى يتدخل فى تكوين العقل الحديث ، ثم هناك بعد ذلك الحواضر المجتمعية التى تدفع العقل لى يتجه إلى التفكير المنتج ، ويبتعد عن التفسير الخرافى أو الوهمى للظواهر المحيطة به ، كما أنها تدريجه باستمرار على مواجهة المشكلات المزمنة والطارئة ، ومحاولة إيجاد الحلول الملائمة لها .

20 — إن المجتمع المتخلف والخامل هو الذى يخفت فيه صوت العقل ، فلا يكاد يسمع وهو الذى يبتعد عن ملاحظة الواقع الذى يعيشه ولما يلقى بالما للسلبيات التى تحييط به ، ويظل مشغولاً بأمور لا تحقق أى مصلحة عملية لأبنائه . إنه ببساطة المجتمع الذى يكثر فيه (الكلام) ويقل فيه (العمل) . وقد أثبتت التجارب المتعددة أن الكلام وحده لا يحقق أى فائدة لمن يمارسه ، كما أن العمل بدون فكر سديد يسبقه ويصاحبه ويتابع نتائجه ، يظل ضرباً فى الفراغ ، وإضاعة للوقت الغالى والمثمين على المجتمع .

21 — لكن كيف يعمل الفكر لكي يحقق للمجتمع تقدمه وازدهاره؟ هناك من يدعو إلى البدء بالتعليم، وهناك من يرى المحل الأمثل فى التربية، وهناك من يؤكد على دور الثقافة العامة، وضرورة تطويرها فى المجتمع، وهناك من يذهب إلى أهمية التدريب والتأهيل المستمرين، وهناك من يرجع السبب الأساسى إلى ضرورة تولى الأكفأ مقاليد الأمور. وبالنسبة إلى الجانب السياسى، هناك من يصر على شمولية الدولة وسيادتها المطلقة فى وضع القوانين وتنفيذها، وفى المقابل، هناك من يدعو إلى حرية الفرد، وإفساح المجال أمامه لتحقيق منفعتة دون قيود. أما بالنسبة إلى الاقتصاد، فكما سبقت الإشارة، هناك فريقان: أحدهما يؤيد النظام الاشتراكى الذى يضع وسائل الانتاج فى يد الدولة، والثانى يؤيد النظام الرأسمالى الذى يقرر مبدأ السوق الحرة، ويقصر دور الدولة على تحصيل الضرائب لتمويل الخدمات الضرورية للمجتمع.

22 — وهكذا فإن الفكر ليس أمامه طريق واحد ممهد، بل العديد من الطرق التى يؤدى كل منها إلى نهاية غير متفق عليها تماما. والمطلوب أن يحاول الفكر أمام هذا الموقف المعقد ألا يحدد فقط الهدف المطلوب والصحيح، وإنما أيضا الطريق المؤدى إليه. والمشكلة التى يواجهها الفكر هنا لا تتمثل فقط فى الفكر المخالف أو المناقض له، وإنما أيضا فى غلبة الاتجاهات والتيارات التى تحرك الجماهير معتمدة على دغدغة مشاعرها الجياشة، وعواطفها المتأججة، ومستخدمة فى ذلك الشعارات البراقة التى قد تخذع المجتمع كله لفترة معينة، ولكنها عند التحليل العقلى الموضوعى - تصبح فارغة من المضمون.

23 — وليس معنى ما سبق أننا نذهب إلى أن الفكر العقلى وحده هو المقادر على مواجهة الواقع وحل مشكلاته، بل لابد أن نضع فى اعتبارنا أن مكونات هذا الواقع تشمل رغبات البشر ومشاعرهم ومعتقداتهم وثقافتهم المحلية، وقبل ذلك كله: آمالهم وآلامهم. وهكذا فإننا ندعو هنا فلسفة عقلية ذات طابع إنسانى، يكون الغرض منها - كما قال بنتام - "تحقيق أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس".

24 — لقد جرب العالم كلا من النظامين : الاشتراكي والرأسمالى ، والاشتراكية كما نعلم متعددة المستويات تبدأ من الشيوعية المطلقة إلى الاشتراكية الديمقراطية ، كما أن الرأسمالية تنقسم إلى رأسمالية معتدلة ، وأخرى متوحشة . وهناك نظام ثالث يجرى تطبيقه حالياً فى الصين ، وهو يجمع بين عناصر من الرأسمالية والاشتراكية . وعموماً فإن هذه المذاهب كلها كانت فى بدايتها نظريات عقلية ، أى أفكار استحدثها العقل الانسانى ، لكن التطبيق الفعلى لها هو الذى كشف عن مواطن الضعف فيها أكثر مما اكتشفه فلاسفة ونقاد سياسيون واقتصاديون كبار . وهذا ما يجعلنا نؤكد ، ونعيد التأكيد على ضرورة استمرار الجدلية بين الفكر والواقع . ويترتب على ذلك أن نتيح للفكر كل امكانيات البحث واقتراح ما يراه من حلول ، لكننا لابد أن نقوم على الفور بالتجريب العملى للنتائج التى توصل إليها ، وبذلك نجمع بين أمرين فى غاية الأهمية :

- أن تظل أعيننا مفتوحة دائماً على الواقع الذى نعيشه .

- أن نتجنب كثرة الجدل العقلى الذى يوقعنا فى التنازع بدون جدوى .